الأسلوبيـــــة

1/ مفهومها (بين الأسلوب والأسلوبية)

يلاحظ الباحث أن مفهوم الأسلوبية ، يظلّ مقترناً بمفهوم الأسلوب فالأسلوب سمّة عامة في الحياة ، ولكل فرد أسلوبه الخاص ، كما لكل جماعة أسلوبها الخاص أيضا ، ولكل نوع من أنواع الأدب أسلوبه المختلف كذلك فالأسلوب بهذا المعنى « طريقة في الكتابة ، وهو استخدام الكاتب لأدوات تعبيرية من أجل غايات أدبية ، ويتميز في النتيجة من القواعد التي تحدد معنى الأشكال وصوابها » ليستقيم « جسرًا إلى مقاصد صاحبه ، من حيث إنّه قناة العبور إلى مقومات شخصية لا الفنية فحسب ، بل الوجودية مطلقا » يترتب على هذا الكلام أن الأسلوب ، مفهوم عائم ، يقوم على اختيار أدوات التعبير ، التي تعني اختيار المفردات ، والتراكيب ، والنحو ،والصور والمحسّنات ... ومن ثم يتحدد الأسلوب حسب طبيعة المتكلم أو الكاتب ومقاصده ، لأن « الرّسالة اللغوية من حيث حدوثها ،تنبثق من حيث منشئها ، تصوّرًا وخلقًا وإبرازًا للوجود » ليكون « الأسلوب قوام الكشف لنمط التفكير عند صاحبه وتتطابق في هذا المنظور ماهية الأسلوب ، مع نوعية الرّسالة اللّسانية المبلّغة مادّة وشكلاً » ومنه يمثل الأسلوب « فلسفة الذات في الوجود ، وإذ هو كذلك ، فلا يكون إلاّ مغرقًا في الذاتية تمامًا »

وقد شكل الأسلوب موضوع دراسة خاصّة في البلاغة القديمة ، وارتبط بشكل خاصّ بفن الخطابة عند (أرسطو) وبقضية إعجاز القرآن الكريم عند العرب ، ولأن الحديث عن الأسلوب بعد ثورة اللّسانيات ، يختلف عنه سابقًا إذ يقودنا إلى الكلام حول مصطلح آخر حديث النشأة ، رغم أنه يشتق من مصطلح الأسلوب ، إلا أنه يتخذ له معانٍ متنوعة ومتعدّدة تتجاذبها أطراف معرفية مختلفة ، وعليه كان من الواجب البدء أوّلاً بصياغة مفهوم علمي ، دقيق ، لهذا العلم الذي ما انفكت هويته النوعية، تتلابس بحقول معرفية تتاخمها كعلم اللغة ، والبلاغة والنقد الأدبي ....

فالأسلوبية مثلما يعرّفها (بيير غيرو) هي « بلاغة حديثة ،ذات شكل مضاعف ، إنها علم التعبير ، وهي نقد للأساليب الفردية » ومن ثم يمكن وصفها بأنّها« دراسة للتّعبير اللّساني» أو بالأحرى إنها «التحليل اللّغوي لبنية النص»

ويبدو أن مصطلح (الأسلوبية) أو (علم الأسلوب) قد خضع لفكرة الثبات والتحول ، فالمفردة ثابتة في التاريخ اللغوي الغربي ، ثم تطورت دلاليا حتى صارت في بداية هذا القرن ، مصطلحا يدل على مفهوم ما لكن يبدو أن المفهوم ، متحول ، نشط ، فقد نتج عنه عدة مفاهيم ، تتراوح بين مفهوم الأسلوبية وعلم الأسلوب.

ولأن الأسلوبية تقوم على الأسلوب الذي يمثّل عند بعض الباحثين اختيارًا أو انتقاءً للمفردات والصّور والنحو والتراكيب والمحسّنات..... فإن الدراسة الأسلوبية ، بناء عليه ، تقوم بتتبع مجموعة الاختبارات الخاصّة بمنشئ معين لملاحظة أسلوبه الذي يمتاز به عن غيره من المنشئين وإن كان هذا الأسلوب ــ في النهاية ــ « ليس وثيقة نفسّية عن صاحبه الأسلوب خلق وإبداع ، تجاوز لنفس المبدع ، وحفر مجرى لغوي خاص يصنع الكاتب نفسه » يترتب على هذا الكلام أن الأسلوبية تركّز على السّمات والملامح التعبيرية التي تجعل من النص أسلوبًا مخصوصًا ، يتجاوز به ما هو كائن ومألوف إلى ما هو ممكن وغير مألوف ، وهذه الخصائص والسّمات الأسلوبية ، تختلف من نص لآخر ، حيث تأخذ لها أشكالاً وألوانًا مختلفة ومتجدّدة بتجدّد النصوص ، فقد تكون على مستوي الإيقاع ، أو على مستوى التركيب أو الصّرف أو في توظيف الوسائل البلاغية ، من ألوان البيان والبديع ، أو حتى على المستوى الدلالي ، وهو من الاختيارات النحوية ، والمراد بالنحو هنا «ما هو أعمّ من القواعد المعروفة ، بحيث يشمل قواعد اللّغة بعامة ، في أصواتها وصرفها ومعجمها ، ونظم الجملة فيها ». وعليه فليس ثمة مقاييس محدّدة ، التوظيف الظاهرة الأسلوبية ، حيث أن « الأسلوبية تهتم بالخصائص الأسلوبية على المستوى الصوتي والإيقاعي وعلى المستوى الصرّفي وعلى المستويين التركيبي والدلالي » أي أنها تبحث عن السمة

الأسلوبية البارزة حيثما وجدت ، ومن ثم فلكل نص خصوصية معيّنة ، تختلف عنها في نص آخر تحاول من خلالها الأسلوبية أن «تقرأ النص قراءة داخلية ،لاستخلاص سماته الإيجابية ، والجمالية ، من خلال صياغاته اللغوية »

ولأن الأسلوبية وليدة علم اللّغة الحديث (اللسانيات) ، فإنها تحاول الغوص إلى أعماق النص الداخلية ، للكشف عن سماته الإيحائية التعبيرية وفق نظرة جمالية تتخلق من خلال الصياغة ، وبمعزل عن ربط هذه العناصر بسياقات خارجية ، فهي « بحث عما يتميز به الكلام الفنّي عن بقيّة مستويات الخطاب أوّلاً ، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا» مع تجاوز كل المؤثرات والعلاقات التي تحيط بالخطاب ، في تمثلانها الثقافية والتاريخية والفلسفية ، لأن الأسلوبية من العلوم المستحدثة ، التي تؤمن بانقطاع الصّلة بين النص والسّياق ، أو ما يعتري خارج النص من سمات ، وتكتفي بما دون ذلك ، من سمات داخلية ذلك أنّها تعتمد ، في أحد مرتكزاتها على آليات المنهج الوصفي المستمد من اللّسانيات ، وهنا يبدو طموح علم اللّغة ، تطابق نموذج العلوم الطبيعية المزدهرة ، بعد أن كان علم اللّغة في القرن التاسع عشر ، خاضعًا للتأثيرات الفلسفية السّائدة ،حينئد مما جعله ماديًا ، يعتبر اللغة شيئًا متعيّنًا يستحيل فكّه إلى أجزاء متباينة ، ووصفيًّا يهتم بالأسباب المباشرة للظواهر ، وإن كانت بطبيعتها تطويرية ، تاريخية.